(١١٩)

بل الرفيق الأعلى

* «ألا وإن أحبكم إلىَّ من أخذ منى حقًا إن كان له أو حَلَّنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس».

محمد

* «دنا الفراق، والمنقلب إلى الله، إلى جنة المأوى، وسدرة المنتهى.. إلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى»

محمد

* «إن للموت لسكرات. اللهم أعنى على سكرات الموت. اللهم اغفر لى وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى».

محمد

* «بل الرفيق الأعلى. فى الرفيق الأعلى. فى الرفيق الأعلى».

محمد

* ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.
[سورة آل عمران: آية ١٤٤].

* «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت».

أبو بكر الصديق

* * *

«المدينة، بعد حجة الـوداع حافلة بالتباريك والمسـرات والرحمات.. المسـجد النبوى يشهد قـدوم مائة رجل قدمـوا وافدين مـن «صُدَاء».. حـى من أحيـاء العرب باليمـن.. كان زياد بن الحارث الصُدائى قد لحق بالرسول عليه الصلاة والسـلام بالجعرانـة فى العام الثامـن للهجرة، فأسـلم ونفرٌ من قومه، بلغوا خمسة عشر رجلاً.. عـادوا إلى قومهم فبثوا إليهم الإسـلام، واهتدت إليـه قلوبهم.. وجاءوا اليوم مجبورى الخاطر فى مائة رجل يعلنون إسـلامهم بالمسـجد النبوى، ويبايعـون الرحمـة المهداة. النبى عليه السـلام يسـتقبلهم باشًّـا قريـر العين، يشـهدون بين يديه بالشـهادة ويبايعون على الإسـلام، بينما تشيع الغبطة والمسـرَّة ويتجاوب المسجد النبوى بتكبيرات المسلمين..».

* * *

«مضارب بنى حنيفة، فى أواخر العام العاشر للهجرة، وقد ارتد مسـيلمة بن حبيب الكذاب، وطفق يتنبأ، ويدَّعى النبوة، ويقول للناس قاصدًا النبى عليه السلام: «لقد أُشركت فى الأمر معه. ألم يقل حينما ذكرتمونى له: «أما أنه ليس بِشَرِّكم مكانًا» وما ذاك إلاَّ لما كان يعلم أنى قد أُشـركت فى الأمر معه.. ثم جعل يَسْجَع السَّجْعَان، فيقول

لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن: «لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منه نَسَمةً تسعى، من بين صِفَاف وَحَشَا». واستمرأ الكذاب ما يفتريه، فوضع عن الناس الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنى، بينما يبدى للناس حتى لا يعترضوه أو يشكّوا بأمره، أنه يشهد لرسول الله أنه نبى، ولكنه قد أُشْرك معه فى الأمر.. وزاد اجتراءً فكتب كتابًا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام..».

* * *

«المسجد النبوى بالمدينة، وقد وصل كتاب من مسيلمة بن حبيب.. الكذاب.. النبى عليه السلام يأمر بفضه وتلاوته..».

أحد الأنصار : (مترددًا) كتاب الكذاب يقول.. من مسيلمة رسول الله (تتصاعد استنكارات المسلمين) إلى محمد رسول الله: أما بعد، فإنى قد أُشركت فى الأمر معك (يتململ المسلمون ويعلو استنكارهم) وإن لنا نصف الأمر، وليس قريش قومًا يعدلون..

«المسجد النبوى يموج باستنكار الصحابة وعامة المسلمين، والنبى عليه السلام يهدئ خواطرهم ويدعوهم إلى الصبر والسكينة.. ويملى للتو خطابًا إلى هذا الكذاب..».

النبى : (يملى على أحد شبان المسلمين) بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من

اتّبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشـاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

«النبى عليه السلام يلتفت إلى المبعوثين اللذين حملا كتاب مسيلمة الكذاب، فيسألهما..».

النبى : (لمبعوثى مسيلمة الكذاب) وأنتما. هل تقولان بمثل ما يقول؟!

المبعوثان : (فى جراءة واقتضاب) نعم!

«يتصايح المسـلمون اسـتنكارًا.. فيشير إليهم النبى عليه السلام بالتزام الهدوء..».

النبى : (فى صبر وحلم) أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما!

«المبعوثان يتسـلمان كتاب النبى عليه الصلاة والسلام، وينصرفان للحاق بصاحبهما ، دون أن يعرض لهما أحد من المسلمين بسوء..».

* * *

«المسـجد النبـوى بالمدينة، بالمحرم السـنة الحادية عشـرة للهجرة، ولا تـزال الأفراح تملأ أرجـاء المدينة بالعـودة إلى الحـج إلى بيت الله المحرم.. يدخل إلى المسـجد وفد النَخْع فى نحو مائتى رجل قادمين من اليمن لإشـهار إسلامهم ومبايعة الرسـول عليه الصلاة والسلام.. كانوا قد باتـوا ليلتهم بدار الأضيـاف بالمدينة، فلما غدا

الصبح أتوا مشوقين إلى لقاء الرحمة المهداة، والإسلام والمبايعة بين يديه..».

«فى الوفد زرارة بن عمرو، وفيه من كانوا قد بايعوا معاذ بن جبل على الإسلام إبان إيفاده إليهم.. وكان بعضهم قد سبق وأسلم يوم الفتح وشارك فى فتح مكة. يدخل الوفد فيتجه مباشرة إلى الرحمة المهداة، يحيونه بتحية الإسلام، ويشهدون بأنه لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله.. ويبايعون على الإسلام.. فتتصاعد تكبيرات المسلمين، ويموج المسجد النبوى بالرحمات والمسرة وتلاقى الاحتفالات ودخول الناس فى دين الله أفواجًا..».

«بالمسجد بأحد الصفوف: الصحابى عبد الله ابن مسعود يهمس إلى جاره..».

عبد الله بن مسعود : (هامسًا لجاره) تمنيت أن أكون رجلاً منهم.. فقد سمعت رسول الله ﷺ يدعو لهذا الحىّ من النَّخْع.. ويثنى عليهم..

الجار : صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

عبد الله بن مسعود : صدقت.

* * *

«المدينة، بأواخر صفر للسنة الحادية عشرة للهجرة، والنبى عليه الصلاة والسلام قرير العين راضى النفس بعد أن آب مجبورًا من حجه

بالمسلمين إلى بيت الله الحرام.. لقد نهض للحج والوفـود تتقاطر على المدينة طوال العام العاشـر للهجـرة، ومن قبله العام التاسـع، لتدخل فى دين الله أفواجًا، ولتبايع فى المنشـط والمكره .. ولم ينقطـع مجىء الوفود بعـد الإياب من الحج المبـارك.. وبدا له عليه السـلام وهو يسـتعرض صفحـات الجهـاد والدعوة، أن الإسـلام بات يأمن مطمئنًا فى قلب الجزيرة العربية، ولا شىء يتهدده من جنوبها.. ولكن الشمال لا تزال تأتى منه رياح مقلقة.. تأتى من وقت لآخر أخبار عن نوايا أو حشـود الروم.. إنه عليه السلام لا يزال يذكر خروجه إلى «تبوك» وإن كان المحتشـدون من الـروم قد آثروا السـلامة حـين رأوا طلائع المسلمين.. وإنه عليه السلام لا يزال يذكر «مؤتة» وما جرى فيها.. قد خرجت السـرية يومها فى جمادى الآخرة للعام الثامن للهجرة، والجو ملبد آنـذاك بغيوم تجبر الروم ومن والاهم وعيثهم فى الشـام فسادًا، وقتلهم صبرًا رسول رسول الله إلى حاكم بُصْرى من قبل هرقل.. فى موضع قتله فى «مؤتـة» بأدنى «البلقاء»، دارت معركة قتل فيها أمراء السـرية على التوالى: زيـد بن حارثة، ثم ذو الجناحـين جعفر بن أبى طالب، ثم عبد الله ابـن رواحة، ولم ينقذ المسـلمين يومها من الكَرَّة الشـديدة عليهم من الروم – سـوى حسن فطنة

وقيادة خالد بن الوليد، فأطلق عليه الرسول من يومها: سيف الله المسلول..».

«إن رياح الأخطار لا تزال تأتى من الروم بالشمال.. النبى عليه الصلاة والسلام يقر عزمه على إنفاذ جيش لقتال الروم، فيأمر بالمنادين لينادوا بالمدينة بعزمه ﷺ على تجهيز جيش للخروج إلى الروم.. يجتمع إليه المسلمون فى زمن وجيز، ويجتمع فيمن اجتمعوا إليه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.. فينضم فيمن تسابقوا للانضمام: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن نفيل، وقتادة ابن النعمان، ومَسلَم بن أسلم بن قريش.. وغيرهم من الأنصار وكبار الصحابة.. النبى عليه الصلاة والسلام ينبئهم بالتهيؤ للإسراع بالخروج إلى أُبْنى، بين عسقلان والرملة، بقرب مؤتة بالبلقاء.. بين الشام ووادى القرى لغزو الروم.. المسلمون لا يزالون يذكرون استشهاد زيد ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وشهداء وخسائر المسلمين فى مؤتة..».

«المدينة، أمام مسجد وبيت النبوة، يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر، يخرج النبى عليه السلام فيلقى الحشود التى تجمعت للخروج،

فيفتش بين الحاضرين ، ثم يأمر بمن ينادى على أسامة بن زيد بن حارثة..».

«أسـامة بن زيد بن حارثـة، يخرج من بين الصفوف.. شـاب فى نحو العشـرين من عمره، بينمـا لا يعرف كبـار الصحابة مـن المهاجرين والأنصار لماذا دعاه، فيتجه إلى رسول الله ﷺ..».

أسامة بن زيد بن حارثة : لبيك يا رسول الله.

النبى : (وقد وضع يده على رأسـه) يا أسـامة، سـر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى موضع مقتل أبيك (فى مؤتة) فأوطئهم الخيـل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغـر صباحًا على أهل أُبْنى، وأسـرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلل اللَّبْث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.

«علـى وجوه بعـض كبار الصحابة دهشـة، ولكنهم لا يفصحون بشىء..».

* * *

«بعد يومين، أمام مسـجد ودار النبوة، يخرج النبى عليه السـلام، وطلائع الجيش مجتمعة، فيعقد النبى اللواء لأسامة بيده، ثم يوصيه..».

النبى : (لأسـامة) اغْـزُ باسـم الله، وفى سـبيل الله.. (لجميع الحاضرين) اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا أو امرأة، ولا تمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تُبْتلون بهم، ولكن قولـوا اللهم اكفناهم واكفف بأسـهم عَنَّا! فإن لقوكم وقد

جلبــوا وصخبوا فعليكم بالســكينة والصمــت. ولا تنازعوا فتفشــلوا وتذهب ريحكم. وقولوا اللهم نحن عبيدك وهم عبــادك، نواصينا ونواصيهم بيدك وإنمــا تغلبهم أنت! واعلموا أن الجنة تحت البارقة.

* * *

«بعــد بعض يــوم، رهط من كبــار المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا بناحية من المسجد، يتحدثون بتعجب وضيق من تولية أسامة بن زيد بن حارثة، شــاب فى العشــرين. يبدى معظــم الحاضرين اعتراضهم على هذا الاختيار، ويشــتد عباس بن أبى ربيعة فى الاعتراض على إمارة شاب على جلة المهاجرين الأولــين والأنصار.. عمر بن الخطاب يحاول تهدئتهم والرد عليهم، ولكنه يلبى طلبهم أن ينقل إلى رســول الله ﷺ، ما يضيقون به..».

* * *

«المســجد النبــوى، يخرج رســول الله عليه الصلاة والســلام مريضًا عاصبًا رأســه بعصابة، فيرتقى المنبر وعلى محياه غضب شديد، فيحمد الله، ويثنى عليه، ويخطب فى الحاضرين..».

النبى : أمــا بعد أيها الناس، فما مقالــة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أســامة؟ ولئن طعنتم فى إمارتى أسامة فقد طعنتم

فـي إمارتـي أبـاه من قبله. وأيـم الله إن كان زيـد لخليقًا بالإمـارة، وإن ابنـه مـن بعـده لخليـق بالإمـارة وإن كان لمـن أحـب النـاس إليّ، وإنهمـا لمخيـلان لـكل خـير، فاسـتوصوا بأسـامة خـيرًا فإنـه مـن خياركم.

«ينصرف النبى عليه السـلام من المسـجد إلى داره مباشرة، دون أن يحدث أحدًا، والناس فى وجوم وكأن على رؤوسـهم الطـير.. قد انعقدت ألسنتهم، لا يحسنون بعد ما سمعوا حديثًا».

«المسـلمون يبـادرون إلى الجُـرف بمقربـة مـن المدينـة للتجهـز للخـروج لقتال الـروم.. النبـى عليـه السـلام رغم بـدء دخـول المرض عليـه، لا يفتـأ يوصى كل من يدخـل من كبار الصحابـة عليـه: «أنفـذوا بعـث أسـامة»!

«المسلمون يتجمعون ويتهيأون، لا ينتظرون إلاَّ الإذن بالتحـرك إلى حيث أمر رسـول الله عليه الصلاة والسلام..».

* * *

«النبى عليه الصلاة والسلام فى بيت عائشة، يعانى من صداع شـديد فى رأسـه، ومن حرارة وآلام شـديدة تلم به على نوبات، داهمه المرض وهـو فى بيـت زوجته ميمونة بنـت الحارث، فاسـتأذنها واسـتأذن نسـاءه فى أن يُمرض فى

بيت عائشــة، يعالج حرارة الحمــى بصب الماء على رأسه..

«النبــى عليه الســلام ينهض من فراشــه فى جوف الليــل، فينادى على مولاه أبى مُوَيْهبة.. تتساءل عائشة..

عائشة : (فزعةً للنبى) إلى أين يا رسول الله؟

النبى : أُمِرْتُ أن أستغفر لأهل البقيع..

«النبى عليه الســلام لا تســتوقفه اعتراضات عائشــة، يخرج وفى معيته مــولاه أبو مُوَيهبة.. ييمم شطر البقيع، فلما يلمح عليه السلام التساؤل فــى عينى مولاه، يفصح له عــن أنه قد أُمر بأن يستغفر لأهل البقيع..

«بــأرض البقيــع.. النبى عليه الســلام يقف ويتلفت حوله فى ســكون، فيبتعــد مولاه قليلاً احترامًا لجلال الموقف..

النبى : (وهو يتجول بنظره فى مقابر البقيع) الســلام عليكم يا أهل المقابــر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلــت الفتن كقطــع الليل المظلم، يتبــع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى..

«النبى عليه الصلاة والســلام يمضى فى دعاء طويل واستغفار لموتى المســلمين المدفونين تحت الثرى فى أرض البقيع.. ثم يتهيأ للانصراف.

يقترب منه مولاه أبو مُوَيهبة، فيسير إلى جواره عائدين إلى بيت عائشة..

النبى : يا أبا مويهبة، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة..

أبو مويهبة : (وجلاً) بأبى أنت وأمى يا رسول الله! فخُذْ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة..

النبى : لا والله يا أبا مُوَيْهبة! فقد اخترت لقاء ربى والجنة..

«يمضيان فى صمت حتى يبلغا بيت عائشة، فيستأذن النبى مولاه، ويدخل إلى بيته ليعود إلى فراشه.. تنظر إليه عائشة بإشفاق، ولكنها لا تعقب..

* * *

«فى الغداة، بعد ليل مسهد وآلام تروح وتجىء.. يغالب النبى مرضه وأوجاعه، يخرج إلى المسجد ليصلى بالمسلمين، معصوب الرأس، يدارى عنهم آلامه.. ولكن القلق عليه ممسك بهم يأخذهم فى كل اتجاه إشفاقا على رسول الله مما أحسوا أنه يعانيه..

«المسجد النبوى بميقات الظهيرة.. النبى عليه الصلاة والسلام يغالب مرضه فيعاود الخروج إلى المسلمين.. يجلس على المنبر، فيحمد الله، ويصلى على أصحاب أُحُد فيكثر ويستغفر لهم..

ثم يأمــر الفضل بــن العباس بالمنــاداة للصلاة، ويخطب عليه السلام فى المسلمين..

النبى : أمــا بعــد أيهــا الناس. إنه قــد دنى منى حقــوق من بين أظهركم، ولعلكم لــن ترونى فى هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غــيره غــير مغن عنى حتى أقومــه فيكم.. ألا فمن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت أخــذت له مــالاً فهذا مــالى فليأخذ منــه، ولا يقولن قائل أخشى الشحناء من قبل رسول الله، ألا وإن الشحناء ليست من شــأنى ولا من خلقى.. ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقًــا إنْ كان له أو حَلَّنى فلقيت ربــى وأنا طيب النفس..

«ينهض من بين المســلمين رجــل فيتجه إلى الرسول..

الرجل : يا رسول الله لى عندك ثلاثة دراهم.

النبى : (سَمِحًــا) أما أنا فــلا أكذّبك ولا مســتحلفك على يمين.. (سائلاً) فيم كانت لك عندى؟

الرجل : أما تذكر يا رسول الله أنه قد مّرَّ بك سائل فأمرتنى فأعطيته ثلاثة دراهم؟

النبى : (للفضل بن العباس) أعطه يا فضل..

«الفضل يناول الرجل ثلاثة دراهم..

النبى : (متابعًــا إلى النــاس) من كان عنده شــىء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة..

«النبى عليه الصلاة والسلام يعود فيصلى على أصحاب أحد ويســتغفر لهــم.. ويصلى بالناس

الصــلاة الجامعة، حتى إذا فــرغ من أدائها عاد ليتحدث إلى الناس..

النبى : أيهــا الناس! إن الله خير عبــدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده..

«الناس فى وجوم وقد انحبست أنفاسهم وكأن على رؤوســهم الطير.. أبو بكر الصديق وقد فهم المغزى، يغالبه التأثر فيجهش بالبكاء..

أبو بكر : فديناك بأنفسنا وآبائنا!

النبى : (لأبى بكر) يا أبا بكر لا تبك. (إلى الناس) إنَّ أمَنَّ الناس علىّ فــى صحبته وماله أبو بكر.. ولــو كنت متخذًا من الناس خليلاً كان أبو بكر.. ولكن أخوّة الإسلام ومودته..

«النبــى عليه الســلام يلتفــت إلى من حوله، فيأمرهم..

النبى : ســدوا عن المســجد كل خوخــة غير خوخة أبــى بكر – (يســتأنف ناظرًا إلى أبواب المســجد) إنَّ أعظم الناس علىّ مَنًّــا فى صحبته وذات يــده أبو بكر، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها فى المسجد إلاَّ باب أبى بكر..

عمر بن الخطاب : يا رســول الله دعنى أفتح كوة أنظــر إليك حين تخرج إلى الصلاة.

النبى : (معتذرًا فى رفق) لا يا عمر..

(يســتأنف) يا معشــر المهاجرين، إنكم أصبحتم تزيدون، والأنصــار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها.. هم عيبتى (خاصتى وأهل سرى) التى أويت إليها، أكرموا كريمهم،

وتجاوزوا عن مسيئهم.. احفظونى فيهم، اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم..

«النبى عليه السلام يعود إلى بيته متكئا على علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس، والمسلمون تسبقهم ضراعاتهم إلى الله عز وجل أن يحفظ لهم نبيهم ويشفيه من المرض الذى ألم به..

* * *

«النبى عليه الصلاة والسلام فى بيت عائشة يعانى من أوجاع المرض، ومن وطأة الحمى، يغالب مرضه ليخرج للصلاة بالناس.. يظل على ذلك عدة أيام.. ولكن المرض يشتد عليه، وتعلو حرارة الحمى.. فينادى عليه السلام فيمن حوله.

النبى : هريقوا علىّ (الماء) من سبع قرب من آبارٍ شتى..

«عائشة، وأهل بيته، يسارعون إلى صَبّ الماء الذى كانوا قد جهزوه لتخفيف حرارة الحمى.. النبى عليه السلام تتغشاه إغماءة، يفيق منها بعد برهة فيحس آثار دواء فى فمه، وبعض آثاره على صدره.. يلتفت إلى من حوله غير راض..

النبى : (معاتبًا) من فعل هذا بى؟!

«يرتج على أمهات المؤمنين عائشة، وأم سلمة، وميمونة – ومعهن

أسماء بنت عميــس، وعمه العباس واقف معقود اللسان..

بعض أهل البيت : (متشجعين) عمك العباس يا رسول الله.

العباس : (وقد لمح التساؤل فى عينى الرسول) هذا دواء أتى به نساء جئن من الحبشة..)

النبى : ولم فعلتم ذلك؟!

العباس : خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب.

النبى : إنَّ هذا لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به.

«أهل البيت فى أســف وحــيرة، لا يعرفون كيف يكفكفون غضب رسول الله عليه السلام..

* * *

«النبــى عليــه الصلاة والســلام بفراشــه فى بيت عائشــة فى ميقــات صلاة العشــاء – وقد شــعر ببعض التحســن، وأراد أن يخرج للصلاة بالناس.. يحاول النهوض، ويأمر أهل البيت أن يضعوا له الماء فى المخضب (وعاء غسل الملابس) ففعلوا.. النبى عليه الســلام يغتسل ويتوضأ، ثم يحاول النهوض مثقلاً بأوجاعه فيغشــى عليه.. يفيق ثم يحاول عليه الســلام القيام مرة أخرى، ولكن المرض يغلبه.. والناس عكوف فى المســجد فى انتظاره لإقامة الصلاة.. يســمع عليه الصلاة والسلام بلالاً يؤذن بالصلاة..

النبى : (لــن حولــه مغالبًا وهنــه وآلامه) مروا أبــا بكر يصلى بالناس..

عائشة : (مراجعةً على استحياء) يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أســيف (رقيق الطبع خفيض الصوت)، كثير البكاء إذا قرأ القرآن، ومتى قام مقامك لا يسمع الناس!

النبى : مروا أبا بكر يصلى بالناس..

«عائشــة تكــرر على رســول الله مــا قالته، وتضيف ومعها بعض أمهات المؤمنين»

عائشة وبعض أمهات المؤمنين : فلو أمرت عمر!

النبى : (معاتبًا فى رفق ودعابة) إنكن صواحب يوسف.. (يستأنف مصممًا) مروا أبا بكر يصلى بالناس..

«بعــد برهــة يتناهى من المســجد صوت عمر ابن الخطاب يكبر للصلاة بصوته الجهير..

النبى : (غاضبًا) فأين أبو بكر؟

«أهل البيت معقودو اللسان لا يجدون ردًا..

النبى : (مستأنفًا لا يزايله غضبه) يأبى الله ذلك والمسلمون.. يأبى الله ذلك والمسلمون..

«البعض يســارع للبحث عن أبــى بكر ليقيم الصــلاة.. لا يهــدأ غضب النبى عليه الســلام، إلاَّ وقــد اطمــأن إلى أن أبــا بكر قد دُعِــىَ وبدأ الصلاة..

* * *

«بعد صلاة العشـاء، على جانب فى المسجد النبوى، عمر بن الخطاب منتح بعبد الله بن زمعة فى عتاب غاضب..

عمر بن الخطاب : (معاتبًا فى غضب) ويحك، ماذا صنعت بي يا ابن زمعة؟! والله مـا ظننت حـين أمرتنى بالصلاة إلاَّ أن رسـول الله أمـرك بذلك، ولولا ذلك ما شـرعت فى الصلاة بالناس..

عبد الله بن زمعة : (معتذرًا) والله ما أمرنى رسـول الله بذلك، ولكنى حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

* * *

«بعد يـوم، والنبى عليه السـلام قد وجد فى نفسـه تحسـنًا، على صـلاة الصبـح.. يقوم إلى المسجد متسـاندًا بين على بن أبى طالب والفضل ابن العباس.. يدخل المسجد وأبو بكر قائم يصلى بالنـاس.. أبو بكر يلمح مقدم الرحمة المهداة عليه السـلام فيتأخر ليفسـح له لإمامة المصلين، ولكن رسـول الله يومئ إليه أن يسـتمر، ويهمس لعلى والفضل أن يجلسـاه إلى جانب أبى بكر، ففعلا.. أبو بكر يتابع قائمًا الصلاة بالناس، والناس يصلون بصلاتـه، والنبى عليه السـلام يصلـى قاعدًا.. يسـتكمل بعد تمـام الصلاة ما فاتـه. ما إن يفرغ من صلاته وأدعيته، حتى يتهافت إليه المسـلمون تملؤهم الأشواق للتملى بمحياه والاطمئنان عليه.

«النبى عليه السلام منصرف لبيته بعد الصلاة، يقول لمن معه..

النبى : (فى تسامح ورضًا) لم يُقْبض نبى قط حتى يؤمه رجل من أمته.

* * *

«بدار عائشة، وقد ظن أهل البيت أن النبى عليه السلام قد أبل من مرضه، إلاَّ أن المرض عاد ليداهمه، يستعين على وطأة الحمى بقدح إلى جواره فيه ماء.. يمسح وجهه بالماء، ويدعو ربه.. «اللهم أعنى على سكرات الموت».. تدخل عليه ابنته فاطمة التى كان يحلو له أن يناديها «أم أبيها».. تلاحظ بقلب الابنة ما على وجه أبيها، فتقول: واكرباه.. يا كربى لكربك يا أبتاه!

النبى : (لفاطمة) لا كرب على أبيك بعد اليوم.

«النبى عليه السلام يرى بقلب الأب الحنون، شدة جزع ابنته، فيستدنيها.. ويسرّ إليها بعبارات لا يسمعها سواها، ولكن المحيطين يرون بكاءها ودموعها التى غالبتها فغلبتها. النبى عليه السلام يعود فيسرّ إليها بعبارات أخرى، لا يسمعها سواها، ولكن المحيطين يرونها تعدل عن بكائها فتضحك.. لا يعلم المحيطون بهما أنها بكت حين أخبرها عليه السلام أنه ميت،

وأنها ضحكـت حينما أخبرها بأنهـا أول أهله لحوقًا به!».

* * *

«أسامة بن زيد بن حارثة، وقد بات مع جنده ليلة الأحد الحادى عشر من ربيع الأول بالجرف بأطـراف المدينة، يأتى إلى دار عائشـة ليطمئن على رسـول الله عليه الصلاة والسـلام ويستأذنه فى الخروج إلى الـروم.. تملأه الغبطة حين يُقال له إنه عليه السلام قد أفاق، فيستأذن عليه وعنده العباس وأمهات المؤمنين حوله.. أسـامة ينحنى ويقبل النبى والنبى عليه السلام لا يتكلم.. جعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة كأنه يدعو له..».

* * *

«يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، وقد أصبح الرسول عليه السلام مفيقًا، يعاوده أسامة ابن زيد، فيبادره عليه السلام..».

النبى : (لأسامة بن زيد) اغْدُ على بركة الله..

«يدخـل أبو بكر مغتبطًا لإفاقة رسـول الله، فيقول..».

أبو بكر : يا رسول الله، قد أصبحت مفيقًا بحمد الله، واليوم يوم ابنة خارجة فأذَنْ لى.

«النبــى يأذن له.. ينصــرف أبو بكر إلى داره بالسُّنْحْ بأعالى المدينة، بينما ينطلق أسامة بن زيد إلى عسكره ليأمر الناس بالرحيل إلى الروم..».

* * *

«النبى عليه السلام على خلاف كل المحيطين به يدرك دنو أجله، يعرف أن لحظة فراق الدنيا والهجرة إلى ربه قد حانت. يأذن عليه السلام لبعض صحابتــه لعيادته، يحيطون بــه وفيهم صاحبه الأثير الصــادح بالقرآن: عبد الله بن مســعود».

النبى : (لأصحابه) مرحبًا بكم، حياكم الله بالســلام، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، وفقكم الله، ســلمكم الله، قواكم وأعانكم الله، وقاكم الله.. أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكــم، وأســتخلفه عليكم، وأؤديكم إليــه.. إنى لكم نذير وبشير ألاَّ تعلو على الله فى عباده وبلاده، فإنه قد قال لى ولكم: (يتلــو) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص: آيــة ٨٣].. (يضيف) وقــال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [سورة الزمر: آية ٦٠]..

الصحابة : (واجمين) بل أمَدّ الله فى عمرك يا رسول الله.

النبى : دنــا الفــراق، والمنقلب إلى الله، إلى جنة المأوى، وســدرة المنتهى.. إلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى والحظ والعيش المُهَنَّى..

«تنســاب دموع الرحمة المهداة عليه السلام، وتنهمر دموع الصحابــة.. ينصرفون وقد أضناهم الإحســاس بأن رســول الله عليه السلام يودعهم الوداع الأخير!».

* * *

«النبى عليه الصلاة والســلام فى فراشه، وقد اشتد الضحــى وحضر ملك الموت، يعرف عليه الســلام دنو الساعة، فيدعو ربه.. اللهم أعنى على سكرات الموت.. يغرغــر بكلمات يكررها فى صــدره ما يكاد يفيض بها لسانه «الصلاة وما ملكت أيمانكم».. يقول لعلى بن أبى طالب، وعلى يطمئنه أنه يســمع ويحفظ ويعى ما يقوله عليه الســلام له: «أوصى بالصلاة والــزكاة وما ملكت أيمانكم».. السيدة عائشة تسند رأس رسول الله، يدخل أخوها عبد الرحمن بن أبى بكر يحمل فى يده سواكًا.. تلاحظ أن الرســول عليه الســلام ينظر إليه، فسألته: آخذه لك؟ فأشــار عليه الســلام برأسه أن نعم. عائشة تعطيــه له فيضعه فــى فمه فتلاحظ أنه شــديد عليه. تســأله عائشــة: ألينه لك؟ النبى يشير إليها أن نعم، فتلينه بفمها وتناوله له.. النبى عليه الســلام يضع يده فى قدح الماء المجاور لفراشه، ويمسح بالماء وجهه..».

النبى : (وروحــه تفيــض إلى بارئها) لا إلــه إلا الله.. إن للموت لسكرات.. اللهم أعنى على سكرات الموت.. اللهم اغفر لى

وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى.. (ينادى هامسًا). ادن منى يا جبريل.. ادن منى يا جبريل.

«النبى عليه السلام ينصب يده وإصبعه ويقول..».

النبى : بل الرفيق الأعلى. فى الرفيق الأعلى. فى الرفيق الأعلى..

«تثقل رأسه عليه الصلاة والسلام فى حجر عائشة، وتميل يده فى الماء، وإذا بصرُه قد شَخص.. تدرك عائشة أن روحه عليه الصلاة والسلام قد صعدت إلى بارئها، فتضع رأسه على وسادة، وتغطيه ببردة، وتنهص تكتم الصراخ وتنثال عبراتها سخينة حارة تنعى لنفسها وللمسلمين انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى..»!

* * *

«الخبر يتفشى فى لحظات، ويتسامع به المسلمون فى المسجد النبوى ويسرى بسرعة البرق فى أرجاء المدينة التى بدت وقد نزل بها هول عظيم.. يصل النبأ إلى عمر بن الخطاب فيجزع جزعًا شديدًا من هول الصدمة.. يسارع إلى المسجد وقد اجتمع الصحابة ومعظمهم لا يصدق، فقد رأوه فى الصباح وبدا لهم أنه عليه الصلاة والسلام يبلّ من مرضه.. يبادرهم عمر وقد أنكر الوفاة كل الإنكار، فيقف فيهم مرتابًا وقد ركبه

الغضب، وجمحت به الظنون، يشك فى كل من يقول أو يدعى أن رسول الله قد مات.. لا يتفطن إلى حزن المغيرة بن شعبة حين قال له آسـيًا: يا عمر؛ مات رسول الله!!».

عمر بن الخطاب : (منفجـرًا فـى المغيرة بن شـعبة) كذبت. بـل أنت رجل تحوسـك (تتخللك) فتنة.. إن رسـول الله لا يموت حتى يُفْنى كل المنافقين!

«عمـر بن الخطـاب، يقـف خطيبًـا فيمن بالمسجد، وقد تملك منه الغضب الشديد..»

«يصل أبو بكر الصديق مهرولاً على عجل وقد أبلغوه بداره بالسُّـنْح – يتجه مباشـرة إلى بيت عائشـة، فيدخـل على الرحمة المهـداة، فيلفاه عليه الصلاة والسـلام مغطى ببردة، يكشفها عن وجهه، فيعرف فيه الموت..».

أبو بكر : (آسيًا حزينًا) مات رسول الله!

(وقد تملكه الأسى) إنا لله وإنا إليه راجعون.. مات رسول الله!

«أبو بكـر ينحنى فيقبل جبين رسـول الله، يقول وقـد غلبه الحزن وانهمرت دموعه.. يطفق وسـط دموعه فى تقبيل رأس الرحمة المهداة وهو يقـول: وا نبيـاه! وا صفياه! وا خليلاه! يكب أبو بكر على الجثمان يقبله ويقول باكيًا..».

أبو بكر : (وهو ينظر مليًا يريد أن يشـبع من محيًا الرسول) ما أطيبك حيًّا وما أطيبك ميتًا. (ملتفتًا لأهل البيت) إنا لله وإنا إليه راجعون..

مات رسول الله! (يستأنف) بأبى أنت يا رسول الله. والله لا يجمع الله عليك موتتين أبدًا، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متّها!

* * *

«بالمسجد النبوى، يصل أبو بكر وعمر بن الخطاب يرغى ويزبد حتى أزبد شدقاه، بينما يقول العباس..».

العباس : إن رسول الله ﷺ يأسن (يتغير) كما يأسن البشر، وإن رسول الله قد مات فادفنوا صاحبكم، أيميت أحدكم إماتة ويميته إماتتين؟ هو أكرم على الله من ذلك، فإن كان كما تقولون فليس على الله بعزيز أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء الله..

«عمر بن الخطاب يرفض كل منطق، ويهاجم كل من يزعم أن رسول الله مات.. يقول لن يموت رسول الله حتى يُفنى كل المنافقين.. أبو بكر الصديق يشير وقد وصل إلى عمر أن يسكت، ولكن عمر لا يسكت.. يتركه أبو بكر وهو يقول له على رسلك يا عمر، ويذهب على موضع آخر فيبدأ فى مخاطبة الناس، فيتجهون إليه يسمعون ما يريد أن يقوله لهم.. يبدأ الصديق فيحمد الله ثم يثنى عليه.. ويتلو..».

أبو بكر : (بصوته الهادئ العميق) قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤٤].

«النـــاس تنصت وكأن على رؤوســـهم الطير.. ينصت عمر بن الخطاب رغمًا عنه إلى الآيات، فيفيء وقد هاله أنه تصرف وكأنه لم يسمعها من قبل.. يلزم الصمت ويستمر فى الإنصات إلى الصديق..».

أبو بكر : أما بعد؛ فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت.

«النـــاس تفـــىء إلى الواقع مـــع الكلمات التى انســـابت من الصديق، وما تلاه من آيات الله عز وجل.. بينما يقف عمر بن الخطاب كأن الأرض قد مادت من تحته، فيتهاوى إلى الأرض، موقنًا وقد هاله الموقف الجليل، أن رســـول الله ﷺ قد مـــات، مســـترجعًا كلمات الصديـــق أن من يعبد الله، فإن الله تعالى حىّ لا يموت!».

(تم بحمد الله)